تجليات كاتب من عُمان . I

السودان.. الفن والشعر والهادي آدم

د. سعيد بن سليمان العيسائي

لم تكن السودان بالنسبة لي بلدًا عربيًا درسنا جغرافيته وتضاريسه ومقوماته الطبيعية في سني الدراسة الأولى فحسب بل تعدى ذلك الأمر إلى ما هو أكبر من ذلك.

حينما جاءت البعثات التعليمية العربية عندما تولى جلالة السلطان قابوس المعظم زمام الأمور عام ١٩٧٠م من أقطار مختلفة كمصر والسودان والأردن وتونس والمغرب رافقتها بعثات أخرى، وخصوصًا في تدريس اللغة الإنجليزية من بريطانيا بمقاطعاتها المختلفة الإنجليز والإسكتلنديون والأيرلنديون، والولايات المتحدة الأمريكية والهند.

كما كان لهذه الجنسيات حضور لافت وبخاصة في الجوانب الطبية. لقد كان هذا التنوع الثقافي فرصة مواتية لي للاحتكاك بكل هذا الزخم من الخبرات والمعارف التي جلبها جيل السبعينيات؛ فقد كنت تجد من هؤلاء المقرئ وخطيب الجامع والخطاط والرسام والمسرحي الأمر الذي قلّما تجده في أيامنا هذه.

كما كانت صحار «مدينتي» مدينة متفتحة على العالم على مر العصور حيث استقطبت نسبة لا باس بها من الهجرات الداخلية والخارجية التي أشرنا إليها في بحث نشر في ندوة أقامها المنتدى الأدبي عن تاريخ هذه المدينة. وافتخر هنا بأنني من أوائل الذين كتبوا عن هذه الولاية ومن أكثر الذين ناقشوا وتحدثوا في كتاباتهم عن تاريخها ودورها الريادي والثقافي.

كان للهنود وبخاصة «البانيان» محلات تجارية في صحار ومسقط وبعض مدن الساحل، وكان للإيرانيين من الطائفية البهائية – كما روى لي ذلك بعض كبار السن من المهتمين بالتاريخ من أبناء الولاية – محلات تجارية لإصلاح الأجهزة الكهربائية في سوق صحار الأثري القديم الذي اندثر.

كما كان لبعضهم عيادات طبية خاصة للعيون والنظارات الطبية كـ «نظارات أفنان» وعيادة «الرضواني» لعلاج الأسنان التي تعد أول عيادة أسنان خاصة في صحار وافتتحت في الستينيات من القرن الماضي، وكان ابن صاحب هذه العيادة يدرس معي ويدعى «نويد».

وهذا هو ما أكده الرحالون العرب والأجانب في معرض حديثهم عن صحار وعمرانها وتجارتها حتى أن أحد هؤلاء الرحالة الأجانب شبه مجالس وصالونات صحار في الفترة التي زارها بصالونات علية القوم في لندن.

وفي بداية السبعينيات من بقالة والدي المقابل لمستشفى صحار المركزي الذي يخدم أبناء الولاية والولايات الأخرى المجاورة من سكان البحر والريف والجبل استمع إلى المذياع في خلوتي عندما أفرغ من واجباتي ومذاكرتي ويهدأ عدد الزبائن المترددين على هذه البقالة فكانت الإذاعة المحلية «الإذاعة العمانية» و«B.B.C» و«صوت العرب» ؛ و«المونت كارلو» من أشهر المحطات التي أتابع من خلالها أخبار العالم والبرامج الثقافية وأشهر الأغاني لكبار الفنانين والمطربين العرب الذين كان من بينهم الفنانون السودانيون حيث كان للأغاني السودانية نصيب من هذا التجوال الأثيري المسائي.

تبدأ الإذاعة العمانية وبعض الإذاعات العربية بالقرآن الكريم بأصوات كبار المقرئين كالشيخ محمد رفعت والشيخ محمد محمود الحصري والشيخ طه الفشني والشيخ راغب مصطفى غلوش والشيخ مصطفى إسماعيل والشيخ محمد الطبلاوي والشيخ عبد الباسط عبد الصمد والشيخ أبو العينين شعيشع والشيخ محمود البنا والشيخ محمود صديق المنشاوي وأخيه الشيخ محمد صديق المنشاوي والشيخ الصياد والشيخ المقرئ السوداني محمد سعيد نور الذين عاش في الكويت ردحًا من الزمن.

انعكس هذا الاستماع الدائم المتواصل لهؤلاء المشاهير من المقرئين إلى تقليد بعضهم كتقليدي للشيخ/ محمود صديق المنشاوي، وكنت أطلب لقراءة القرآن الكريم في بعض الاحتفالات بولاية صحار وخصوصاً تلك التي كان يرعاها المغفور له السيد الوالد سلطان بن حمود البوسعيدي (مستشار الدولة للشؤون العدلية) الذي دعاني لمنزله بعد ذلك وعرض عليّ الإلتحاق بمعهد القضاء الشرعي آنذاك ومعهد رأس الحقبة العلمي وبخاصة تلك الاحتفالات التي يرعاها سمو الشيخ المرحوم/ صقر بن محمد القاسمي حاكم رأس الخيمة السابق.

كانت صحار في السنوات الأولى من عمر النهضة الصدى لما يجري في مسقط بل تكاد تكون المدينة الثانية بعد العاصمة مسقط لبعد المسافة عن مسقط وصلالة وللتوترات والأعمال العسكرية التي كانت موجودة في السنوات الست من عمر النهضة؛ لهذا كان معظم الأجانب العاملين في مسقط وبعض ولايات السلطنة يأتون إلى صحار في زيارات سياحية لسوقها الأثري القديم الذي يعج بالكثير من الصناعات والحرف والبضائع ولزيارة قلعتها الشهيرة وأوديتها وقراها الريفية الرابضة بين الجبال.

مكتبة المدينة:

كما يدل عليها اسمها تقع هذه المكتبة في الحي التجاري بولاية صحار وهو من الأحياء التجارية الجديدة التي بدأت مع النهضة عام ١٩٧٠م نظرًا لوجود مستشفى صحار المركزي وعدد من الدوائر الحكومية والمدارس التي حولت هذا الحي إلى منطقة جذب فانتشرت فيه المحلات التجارية والبنوك والمقاهي والمطاعم.

يذكرني هذا الحي بعدد من الشوارع الشهيرة التي زرتها في عدد من مدن العالم كشارع محمد الخامس في الرباط وشارع جليز(محمد السادس) في مراكش وشارع جامعة الدول العربية في القاهرة وشارع الحبيب بورقيبة في تونس العاصمة وغيرها من الشوارع الرئيسية التي زرناها في جدة والكويت وعمّان بالأردن، ودلهي واسطنبول وقطر والبحرين والإمارات.

تعد هذه المكتبة أول مكتبة افتتحت في صحار، وكان اسمها مكتبة الثلاث النجوم (Three Stars) وكانت لأحد سكان مسقط ثم باعها قبل ١٥ عامًا لأحد أبناء الولاية.

بدأت هذه المكتبة في بيع الكتب والقصص والمجلات إضافة إلى الأدوات القرطاسية حتى إن مجلات كالشبكة والصياد كانت تصل إلى هذه المكتبة وعلى غلاف بعضها صور شبه عارية لفنانات أو ممثلات أو مغنيات وقد وضع الرقيب على الأماكن الحساسة أو البؤر الساخنة في أجسادهن خطًا بالقلم الأسود عله يخفي شيئًا من تلك الأماكن.

افتقد فيها الأن مجلة ريدرز دايجتس (Readers Digest) الأمريكية التي كانت تترجم إلى العربية ويقال إن وكالة الاستخبارات الأمريكية تتولى إصدارها حيث صدر العدد الأول منها في عام ١٩٢٢م وكنت حريصاً على قراءتها واقتنائها.

كان لمجلة العربي حضورها لدى العديد من أبناء ولاية صحار، وكان وما زال كاتب هذه السطور واحدًا منهم، وقد أشرت في مقال في مجلة العربي إلى الأستاذ/ سعود الجداوي الذي يحرص على اقتناء هذه المجلة منذ العدد الأول حتى أنه أرسل في طلب هذه الأعداد القديمة الأولى من الكويت والقاهرة، وبعض أبناء الولاية يقتني عددين كل شهر مخافة أن يسأله زميل أو صديق عن عدد فقده أو لم يستطع الحصول عليه فيسعفه بما لديه كي تكتمل منظومة العربي في مكتبته.

انعكس تأثير جماعة المسرح وحب السودان على شخصيتي

وعندما يراني الشاب الذي يعمل بهذه المكتبة مع بداية كل شهر يبادرني برده المعتاد أن المجلة تأخر وصولها أو أنها نفذت فأبحث عنها في أماكن أخرى، ووعندما زار الأستاذ/ سليم زبال الولاية قبل عدة سنوات زيارة سريعة خاطفة والتقى به بعض محبي مجلة العربي حزن الآخرون على عدم تمكنهم من رؤيته والالتقاء به.

تقف المكتبة المتنقلة لوزارة التراث القومي والثقافة (سابقًا) أمام محلنا التجاري الصغير أمام المستشفى وهي تحمل مطبوعات الوزارة في الفقه والتاريخ والشعر لتباع بأسعار مخفضة ضمن خطة وضعتها الوزارة، آنذاك للوصول بمطبوعاتها إلى معظم ولايات السلطنة.

كانت هذه الذخيرة المتحركة فرصة لي وللمهتمين من أبناء الولاية ومنهم والدي رحمه الله وأعمامي الذين كانت تستهويهم هذه الكتب وبخاصة دواوين الشعراء العمانيين من العصرين القديم والحديث.

جماعات الأنشطة الطلابية كانت تستهويني كجماعة الإذاعة والإنشاد والموسيقى والكشافة والمسرح وجماعة أصدقاء المكتبة، كل هذه الجماعات وجماعات اللغة الإنجليزية التي كان يشرف عليها الأستاذ/ الطيب الزبير الطيب السوداني الجنسية.

هذا الرجل الذي حبب إليّ اللغة الإنجليزية في المرحلة الإعدادية لدرجة أنني كنت أحصل على الدرجة النهائية في مادته، وكان يقول لزملائي من أراد أن يتأكد من صحة إجاباته فليسأل (سعيد).

عشقت اللغة الإنجليزية التي حببها إليَّ كذلك الأساتذة البريطانيون (الإنجليز والاسكتلنديون والإيرلنديون) الذي افتتحوا مكتبة للغة الإنجليزية بمدرسة أحمد بن سعيد القريبة من منزلنا في الحي التجاري.

كانت قصة (**Road to no Where**) من القصص التي كانت مقررة في منهاج اللغة الإنجليزية حيث كانت أحداثها تدور في السودان وبطلها شخصية سودانية، وتتحدث عن بدايات وصول شركات التعمير والإنشاءات إلى السودان ورغبة الشركة في إنشاء سد في إحدى القرى وانقسم الناس ما بين مؤيد ومعارض لهذا المشروع الذي تغلب فيه المؤيدون وبني السد وعندما جاءت الأمطار غرقت القرية التي تسكن فيها حبيبة بطل القصة.

كنت أتقمص دور القاضي السوداني في بعض المسرحيات التي كانت تقام بالمعهد مرتديًا الزي السوداني

منحني التحاقي بجماعتي أصدقاء المكتبة واللغة الإنجليزية ولعًا باستعارة الكتب باللغتين من هاتين المكتبتين بشكل دائم تحول بعد سنوات إلى شراء واقتناء الكتب وتصوير المخطوطات والاشتراك في بعض المجلات والدوريات.

لا أدري لماذا الاهتمام بالسودان على وجه الخصوص؟ هل لأننا ارتبطنا جميعًا إلى جانب بعض دول الخليج وبعض دول العالم العربي بالإنجليز منذ سنوات طويلة، أو لأن ارتباطنا نحن العمانيين على وجه الخصوص بأفريقيا وانطلاقنا لتكوين حضارة وإقامة إمبراطورية عظيمة كان لها شأن عظيم في ما مضى حببت إليّ بطريقة لا شعورية الاهتمام بكل ما هو أفريقي فزاد اهتمامي بالسودان، وكتبت عن الوجود العماني في شرق أفريقيا، وأنجزت أطروحتي للدكتوراه في المغرب، وقدر لي أن أعمل ملحقًا ثقافيًا في سفارة سلطنة عمان بالقاهرة.

انعكس تأثير جماعة المسرح وحب السودان على شخصيتي فظهرت بعض نتائجه حينما كنت أدرس بمعهد رأس الخيمة العلمي، فإلى جانب التحاقي بعدد من الجماعات في المعهد كجماعة الكشافة والرحلات كان يطلب مني بإلقاء بعض قصائدي وقراءة القرآن في الاحتفالات الكبرى التي تقام بالمعهد، يرعاها المغفور له الشيخ/ صقر بن محمد القاسمي حاكم رأس الخيمة آنذاك.

كنت أتقمص دور القاضي السوداني في بعض المسرحيات التي كانت تقام بالمعهد مرتديًا الزي السوداني ومعتمرًا العمة السودانية.

ومنذ أيام ميكرة من حياتي كانت تنتابني رغبة لاستكمال دراستي الجامعية في الأزهر الشريف لأتخصص في علم القراءات القرآنية أو الدراسة في بريطانيا لإرضاء الولع باللغة الإنجليزية فقدر لي أن أدرس العلوم الدينية واللغوية في معهد علمي متخصص (معهد رأس الخيمة العلمي) التابع لجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية الشبيه بالمعاهد الأزهرية، وعملت ملحقًا ثقافيًا بالقاهرة لمدة أربع سنوات فتحقق جزء من الرغبة الأولى، أما الرغبة الثانية فتحققت من خلال تفوق ودورات داخلية وخارجية وقراءات دائمة لكل ما له صلة باللغة الإنجليزية، لكن التوق والحنين لرغبات الصبا والشباب وطموحاتها ولم يتوقفا بعد.

وتجدر الإشارة إلى أن عددًا من الأساتذة السودانيين الذين أسهموا في خدمة التعليم في السلطنة في فترة السبعينيات والثمانينات من القرن الماضي كانوا من خريجي معهد التربية بـ «بخت الرضا» وبعضهم تعلم في ثانوية «حنتوب» اللذين سنفصل الحديث فيها لارتباطهما الوثيق بموضوع مقالنا بشكل مباشر. أما الآخرون فقد تخرجوا في ثانوية «غوردن» الشهيرة أو في جامعة الخرطوم أو جامعة أم درمان أو غيرها من الجامعات السودانية، وبعضهم الآخر أكمل تعليمه في مصر أو في المملكة المتحدة (بريطانيا).

أكرهك ؟

رشا أحمد

وأنا أتحدث عنك
كي أوقظ
بحة حزني
أكرهك
أستعير من دانتي مقولته
(أنت كمثل الدائرة
تبتعد عن جميع نقاط محيطك
بالقدر ذاته إلا أنا)
تلك المرأة
التي لاتعرفها
حزنها
صوتها المستعار
الذي يكذب دوما
ليخبرك أنها بخير

كفي البارد
الفجوة التي أتحسسها
كلما تحسست صدري
الكلمات
المرة
التي في
حلقي
التي تخنقني
أدس بجيوب قلبي
كل ماستطعت من حزن

غيابك
زادك توغلا في دمي
فشعريرة الوحدة
التي تمشط روحي ولا يتسرب منها
إلا صمتك
الصمت الهادر الذي نلتهمه معا
كقطعة حلوى شديدة المرار

نعم أنا مهزومة
كشجرة قاحلة بالعراء
وحيدة
استجدي عناقا من الريح
وتأبى الريح
أن تلامس أصابعي !